

ضيوف رغماً عنهم أم ضيوف غير مرغوب فيها ؟

.. وتطلع الرئيس صدام حسين في الوجه
المستدير أدارد هيث ، وشعره الابيض ، وكأنه
يستقرىء جزءاً من تاريخ الازمة التي كان هيث
احد أطرافها وشهوها سنة 1961 عندما كان
يشغل منصب مساعد وزير خارجية بريطانيا
في يوم اعلان استقلال الكويت ثم مطالبة
العراق بعودتها كقضاء ملحق به .. وقال :
- في الشهور الثلاثة المقبلة سيتضح كل شيء
، يا سيد هيث ، الحرب او السلام .
لقاء في 1990 / 10 / 21

كان العراق بحاجة الى تعطيل ضربة امريكية او اسرائيلية بدت امامه محتمة بعد الثاني من آب ، في وقت كانت الاشارات التي تُمرر الى بغداد كل يوم بعد ذلك التاريخ تدل على احتمال تعرض العراق لضربة جوية وصاروخية واسعة في اية لحظة .

لذلك كان اقتراح منع رعايا الدول التي وقفت حكوماتها ضد العراق من السفر ، وكان عددهم يربوا على اثني عشر الف شخص ، يهدف الى خلق عراقيل تعطل وقوع ضربة محتمة ، ووجد اصحاب المقترح ان هذا الاجراء سيزيد في تعقيد الوضع في غرفة العمليات المقابلة لدى الطرف الآخر ، ويجعله في موقف المدافع الباحث عن الحلول حتى لا تكون يداه ظليقتين في الحركة ، وعلى الاقل ، حتى يتعرقل ويتعطل العمل بتوجيه ضربة عسكرية ، قبل ان يكون العراق قد استكمل اجراءاته الدفاعية ، وبناء بدائله لاستيعاب هجوم جوي وصاروخي كان يلوح في الافق .

وتحول اكثر من عشرة آلاف امريكي وبريطاني وفرنسي ونمساوي وألماني وياباني من رجال ونساء وأطفال الى ضيوف رغماً عنهم لدى العراق ، موزعين بين فنادق الدرجة الاولى حيناً ، والمنشآت العسكرية والصناعية المرشحة لتلقي الهجوم الجوي المنتظر ، وعددهم العالم محتجزين في حين عددهم العراق ضيوفاً بعضاً من الوقت .. ثم ما لبث ان سمح بسفر النساء والأطفال ليبقي على الرجال وحدهم .

وكاد يكون مستحيلاً أقتناع الرأي العام العالمي بأن هؤلاء ليسوا رهائن مرغمين على البقاء في العراق ، في مواجهة طوفان اعلامي وسياسي لم تقاومه حواجز صغيرة ومتناثرة نشرها العراق هنا وهناك .

لذلك كان هناك رأيان في بغداد :

الاول : وتتبناه الخارجية العراقية يرى ان العراق لم يكن في حاجة لمنع الاجانب من السفر، وان هذا الإجراء لن يحول دون وقوع الضربة العسكرية ، لو كانت هذه الضربة قد تقررست واستكملت مستلزمات تنفيذها ، وان الإدارة الامريكية قد حصلت على عنصر فعال آخر لتأليب الرأي العام ضد العراق ، وتشويه صورة قيادته ، وسيكون من اليسر إنعاش ذاكرة الجمهور حول صور الرهائن لدى ايران ، واستخدام هذا العامل في التعبئة للحرب ، وبناء على ذلك فان كل يوم يمر يلحق اذى معنوياً بالعراق ، وينال من الصورة التي يريد بناءها لنفسه ، كحامل رسالة انسانية كبيرة ، كان خطابه السياسي والإعلامي يبشر بها كل يوم ، ويذهب هذا الرأي الى ان الجمهور الغربي عموماً ، والامريكي خاصة لم يكن معنياً بمصير حكام الكويت وما لحق بهم ، ولم يكن مستعداً لإظهار أي قدر من الإستعداد للتضحية من أجلهم ، ولكنه ازاء الاستخدام الاعلامي الهائل لموضوع الاجانب في العراق صار مقادراً لإظهار مشاعر كراهية ضد العراقيين الذين كان بإمكانهم حرمان الادارة الامريكية والبريطانية الفرنسية من الحصول على هذا الامتياز .

وقام الرأي الاول على استنتاجات لاتجاهات الرأي العام الغربي بالدرجة الأساس .

اما الرأي الآخر فكان يعاين الامر من زاوية اخرى ، فعدا عن ان هذا الإجراء هو اجراء وقائي للحيلولة دون وقوع الحرب ، فانه ايضاً عمل سبق لدول اخرى ان لجأت اليه اضطراراً كما حدث في الحرب العالمية الثانية عندما احتجز البريطانيون الألمان ، وفعلوا الامر نفسه الى جانب قيود اخرى مع الارجنطينيين خلال حرب الفوكلاند سنة 1982 ، الى جانب ان بعض دول التحالف الغربي احتجزت بعد الثاني من آب أغسطس (رعايا العراقيين بمن فيهم اعداد من جامعاتها ، ولكن تلك الاجراءات لم تقابل بإدانة مماثلة لما قام به العراق .

ووجد اصحاب هذا الرأي ان التسفير التدريجي لهؤلاء الأجنبي ، بعد وساطات يقوم بها سياسيون مرموقون من انحاء العالم ، اعطى العراق نافذة للتعريف بقضاياهم وفتح امامه قناة للإتصال بالعالم بعد ان سدت عليه المنافذ دفعة واحدة .

وتضاعفت الآثار النفسية والاعلامية والسياسية خلال الاشهر الأربعة التي مرت على منع الرجال من رعايا دول التحالف من مغادرة العراق ، وصار واضحاً ان الامر يستخدم في التعبئة لشن الحرب وجمع المؤيدين لها وتحريض الرأي العام ضد بغداد .

وبقي هناك رأيان مفترقان داخل القيادة العراقية:

أحدهما يرى انه ما دام القرار قد اتخذ التحفظ عليهم فينبغي ان يتسمر هذا التحفظ طالما استمر التهديد باستخدام القوة العسكرية ضد العراق وان التراجع عن القرار يعطي اشارات للضعف الدبلوماسية قد اثرت في القرار العراقي وانه بالمكان اللجوء الى هذا الاسلوب في اية قضية اخرى للضغط على العراق ، اما الرأي الآخر فظل يرى طبقاً للإستنتاج الذي توصلت اليه الدبلوماسية العراقية ان استمرار بقاء الغربيين في العراق أدى الى تهشيم صورته في الخارج وأعطى للرئيس الأمريكي جورج بوش نريعة مؤثرة في تعبئة الرأي العام لقبول خيار الحرب ، وان كل العوامل التي ظهرت بعد الثاني من آب (

أغسطس) 1990 لم تكن قادرة على تعبئة الرأي العام الأمريكي ضد العراق بالقوة ذاتها التي اشتغل بها هذا العامل ، ذلك لان الامريكان لم يكونوا معنيين بوضع الأسرة الكويتية الحاكمة ومستقبلها ... ولم يكن القول بان العراق يسيطر على خمس احتياطي النفط ليقلق الرأي العام الأمريكي بالقوة نفسها التي هزّبها موضوع منع الغربيين من السفر .

وظل الرأيان على طرفي اجتهاد مختلف .. ولم يعط الرئيس صدام حسين كلمة قاطعة حتى صباح الخامس من كانون الاول (ديسمبر) 1990 حول مصير آخر ثلاثة آلاف رجل اجنبي كانوا في العراق ، عندما استقبل جون كونالي ، وهو الرجل الذي كان من المحقق ان يموت في حادث اغتيال الرئيس الامريكي الأسبق جون كندي ، إذ كان برفقته داخل سيارة الرئاسة وقتما كان حاكماً لولاية تكساس عام 1963 فأصيب بطلقات مباشرة ، وعدّ قتيلاً في الساعة الاولى لحادث الرئيس الا ان الحظ كان معقوداً له فقد اجريت له عملية جراحية انقذته من الموت ، ويبدو انه أراد ان يجرب حظه ثانية في قضية مستعصية فحضر الى بغداد بصفته وزير خزانة سابق ومعه اسكي وايت رئيس وفد شركة النفط الساحلي الامريكية (Coastal) .

استمع الرئيس في اللقاء الذي جرى في القصر الجمهوري الى عرض مؤثر للطريقة التي يستثمر بها الرئيس بوش هذا الموضوع ضد العراق ، وذهب المتحدثان الامريكيان الى ان بوش يقنع الشعب الامريكي اليوم بان قيادة العراق تضم الكراهية والعداء له كشعب وليس للإدارة السياسية في واشنطن .. والدليل على ذلك هو منع الغربيين من مغادرة العراق .

كان ثلاثة من أعضاء القيادة العراقية هم طه ياسين رمضان وسعدي مهدي صالح ولطيف نصيف جاسم فضلاً عن سكرتير الرئيس يستمعون الى حجج جون كونالي ، وقبل ان ينتهي اللقاء أعطى الرئيس صدام حسين وعداً قاطعاً للسماح للغربيين بمغادرة العراق .

وبالفعل أعلن يوم 6 / 12 / 1990 عن هذا القرار بصورة رسمية .. ليعود (كونالي) فخوراً بحظه الذي جربه أمام الملأ مرتين على الأقل . وكان رؤساء دول من طراز كورت فالدهايم ، ورؤساء حكومات سابقون من مستوى فيلي برانت وناكاسوني وادوارد هيث ، ومرشحو رئاسة امريكان مثل جيسي جاكسون .. قد جربوا من قبل محاولاتهم للحصول على النتيجة التي ظفروا بها في النهاية (كونالي) .

وقبل أقل من شهرين ، في يوم الاحد 21 / 10 / 1990 ، كان الرئيس صدام حسين يستمع الى ادوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا الاسبق الذي طلب منه السماح بسفر الرعايا الاجانب بمن فيهم البريطانيون ، فأبدى الرئيس العراقي رغبته في عدم وضع أي قيد على حرية المغادرة لأي من هؤلاء ، ولكنه طرح حاجة بلاده الى ضمانات بان السلاح لن يستخدم ضد العراق ، وحدد الضمانات التي يريدها العراق بأحد الخيارات التالية :

– تعهد علني من امريكا .

– تعهد ثنائي من بريطانيا وفرنسا .

– تعهد باية صيغة من الصيغ بصدر عن الامم المتحدة .

وأضاف الرئيس : اننا لسنا مرتاحين لوجود اجانب وقد قيدت حريتهم في السفر .. لكن هذا حصل لكي نندراً الحرب ، كما نتصور .

علق السيد هيث : ان هذا لن يساعد على بلوغ الحل الشمل الذي يقول به العراق .

فأجاب الرئيس صدام حسين :

– نحن لا نريد ان نتوصل الى الحل الشامل لكي نسمح للأجانب بمغادرة العراق .. انما نريد ان يتغلب منطق السياسة على منطق البندقية .

ثم تجاوب الرئيس العراقي مع رئيس الوزراء البريطاني الأسبق في طلباته لتفسير عدد من الأشخاص الذين انتهت عقود عملهم ، أو كانوا طاعنين في السن الذين قال عنهم هيث : " ان هؤلاء لم يعلموا شيئاً يسيء اليكم " .

فرد الرئيس :

– لو عملوا شيئاً مسيئاً ضدنا لخففوا ألمنا عليهم ، وهم ليسوا مسؤولين عن كل ما حصل .. لكننا نأمل ان لا يطول بقاؤهم .. وتطلع في الوجه المستدير لادوارد هيث ، وشعره الابيض وكأنه يستقرىء جزءاً من تاريخ الأزمة التي كان هيث أحد أطرافها وشهوها سنة 1961 عندما شغل منصب مساعد وزير خارجية بريطانيا في يوم اعلان استقلال الكويت ثم مطالبة العراق بعودتها كقضاء ملحق به .. وقال :

– في الشهور الثلاثة المقبلة سيتضح كل شيء ، يا سيد هيث ، الحرب أو السلام ..

أما السيد فيلي برانت مستشار ألمانيا الأسبق فكان يرى ، في حديثه مع الرئيس صدام حسين (7 / 11 / 1990) ، انه إذا حصل عدوان على العراق فان أصحاب القرار في امريكا لن تهمهم حياة اولئك الذين وضعهم العراق في المنشآت الحيوية ، بل ربما أحدث احتجازهم العكس في امريكا ، بعد ان أدى

الى توفير دعاية إضافية ضد العراق قد تسرع في نشوب الحرب .

وقد أجابه الرئيس صدام حسين على ملاحظته بأن قرار منع أي انسان من السفر هو قرار سيء :

- ..لكنه قرار الإضطرار .. وليس قرار الإختيار ..

كان المهم لدى العراق هو منح زائريه من كبار الشخصيات الامريكية والاوربية اليابانية ورقة سياسية للتحرك ضد الحرب ، من خلال تقوية مراقعهم في بلدانهم عبر السماح لهم بإصطحاب اعداد من مواطنيهم الموجودين في العراق .

ولذلك كانت حصة ادوارد هيث كبيرة ، إنز عاد بصوت عال ليتحدث ضد الحرب ، ويدعو للحوار مع العراق ، بعد ان أرجع معه على طائرته عدداً كبيراً من مواطنيه ، وحصل الامر نفسه مع فيلي برانت المستشار الألماني الأسبق ، وناكسوني رئيس الوزراء الياباني الأسبق ، وسواهما ممن اشترك في مد قناة دبلوماسية بديلة للقنوات التقليدية التي أغلقت في وجه العراق .

عند بدء الحرب .. صارت المرارة تعتصر نفوس الكثيرين .. الى الحد الذي يعتقد بعض السياسيين ان العراق لم يتعود اتخاذ قرار والتراجع عنه في منتصف الطريق ، ولذلك كان يمكن له ان يستمر في موقفه ما دام الضرر الناجم عن الخطوة الأولى في هذا الإتجاه قد اخذ مداه ، خاصة بعد ان بدا للجميع ان الحرب آتية لا محالة ، وان إخلاء سبيل الغربيين صار مكسباً سياسياً للولايات المتحدة وحلفائها ...

سألت السيد طه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهورية عن الأسباب التي جعلته داعية متشدداً للتحفظ على سفر رعايا الدول الاخرى من العراق ، برغم ان مؤشرات مقابلة كانت تدل على ان قرار الحرب قد اتخذ بغض النظر عن بقاء هؤلاء في العراق او سفرهم الى خارجه .

أجابني الرجل بعد سنة ونصف على وقف إطلاق النار :

- إنني اليوم أكثر ايماناً من أي وقت مضى بأن حجز خمسة آلاف أجنبي ، لو استمر ، كان يفرض احتمال تغيير امور كثيرة ، برغم انني لست متحفظاً على صيغة القرار الأخير الذي اتخذ بشأن إطلاقهم .

وذهب الى ان خروجهم من العراق قد سهل العدوان على العراق ، حتى ان تحديد موعد الضربة قد تم بعد ذلك التاريخ .

وأضاف :

- في كل الأحوال عاملناهم أفضل مما يجري التعامل مع أي رعايا أجنب في أي مكان ، وفضل بكثير مما عومل به العراقيون في الدول التي تحالفت ضد العراق .

ولحظة بدء الهجوم على بغداد تمنى القياديون العراقيون لو كان الغربيون موجودين تلك اللحظة حيثما كانوا قبل أربعين يوماً ... وهم يعدون ما حصل خطأ وقد وقع ...